وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المدخل إلى.."فقه العمران" (1/ 4)

http://islamtoday.net/articles/show_articles_content.cfm?id=37&catid=185&artid=12546

د. مسفر القحطاني

1429/5/1
2008/05/06

علم العمران البشري من العلوم الإنسانية التي أدّت إلى نقلةٍ نوعيةٍ في كتابة التاريخ، وكان شرف هذا الكشف وتأسيس هذا العلم منسوباً لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المتوفى سنة 808 هـ، وذلك في مقدمة مؤلفه التاريخي المشهور "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، ولم يكن لهذا العلم الجديد مزيد بحث وتصنيف أو شرح وتعريف ممن جاء بعده من علماء المسلمين، حتى بعض تلامذته (كالمقريزي) أو من جاء بعده بقليل (كابن الأزرق) فقد عرفوا أهمية فكر ابن خلدون التاريخي،غير أنهم لم يضيفوا شيئاً يُذكر على ما اكتشفه شيخهم من علم.

أما في العصر الحديث فقد ذاع هذا العلم، واشتهر مكتشفه، وتوالت بعده المصنفات والنظريات الغربية التي أثمرت فهماً إنسانياً لطبائع المجتمعات، وأثرها في تاريخ الأمم والشعوب، وكان أشهرهم بحثاً وتقصياً هو (دوركايم) مؤسس علم الاجتماع الحديث وقبله (اوغست كونت) الذي بدأه من خلال الحديث عن الفيزياء الاجتماعية، ثم أطلق عليه لقبه الخاص (السوسيولوجيا) والذي انسحب بعد ذلك كعَلَمٍ عليه في الغرب والعالم أجمع. يقول توينبي المؤرخ البريطاني الشهير عن ابن خلدون والدور العلمي لمقدمته: "قد أدرك وتصور وأنشأ فلسفة للتاريخ هي بلا شك أعظم عمل من نوعه خلقه أي عقل في أي زمان ومكان".[1]

أما عن فلسفة ابن خلدون حول علمه الجديد (العمران البشري) فقد قال عنه: إنه "ذو موضوع هو العمران البشري والاجتماع الإنساني وذو مسائل؛ وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذات واحدة بعد أخرى، وهذا شأن كل علم من العلوم وضعياً كان أو عقلياً"[2]. وقد قام ابن خلدون بتحرير الأساسات المنطقية لكل علم برهاني؛ إذ يُعدُّ اكتشافه من هذا القبيل، الذي لم يسبق إليه أحد فأخذ يقرر في بداية المقدمة أسس المناطقة في التعريف بالعلوم البرهانية، وأنها

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

مبنية على الأركان الأربعة التالية: الموضوع، والأعراض الذاتية، والمسائل، والمقدمات.

ويرى ابن خلدون "أنه شرح فيه من أحوال العمران والتمدن، وما يعرض في الاجتماع الإنساني من الأعراض الذاتية، وما يمتعك بعلل الكوائن وأسبابها، ويعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها" (3)

ثم قال في بيان غايته: "وهو علم يحوّل غاية المؤرخ من سرد الأخبار، وتصيد الغرائب، إلى السعي إلى فهم الاجتماع الإنساني، الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال، مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على البعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال". (4)

وهذا المنهج من النظر في تحليل واقع المجتمعات، ودراسة أسباب التغير والتبدل في أحوال الفرد والجماعة، يُعدّ من أعظم مصادر العمل الإصلاحي لأي مجتمع يُراد تغيير ظروفه وعلاج أزماته، ولعل عُزلة ابن خلدون في قلعة ابن سلامة في الجزائر بعد نكبات عدة شهدها في الأندلس والمغرب العربي قد قادته لتلمس المخارج، ومراجعة طبائع العمران، وتأثيرها على بني الإنسان.

والحقيقة أن الغرض من سوق مقدمة تعريفية لعلم العمران الخلدوني هي من أجل ذكر العلاقة بين ما اكتشفه ابن خلدون من أثر الطبائع والأحوال وفهم الاجتماع الإنساني إلى تحويل هذه المؤثرات والمفاهيم إلى آليات عمل، ومشاريع بناء، وعمارة للأرض تساهم في صياغة فعل إنساني يتجاوز انحطاط الواقع وغموض المستقبل، لهذا كان الأليق بعلم العمران أن يُربط بعلم الفقه للتعريف بخطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين؛ من حيث الواجب المراد فعله أو الندب إليه، أو المحرم المراد اجتنابه أو التنزه منه. فالداعي الأساس من إيراد هذا الموضوع هو إعادة الربط بين الفقه الحامل للعمل؛ وبين المفهوم المجتمعي المبيِّن لطريق العمل الصحيح؛ من خلال إدراك طبيعة التغيير وفهم مجالات الإصلاح المنشود، والعمران الحضاري المطلوب؛ وفق كل الأحوال والظروف التي يعيشها الفرد المسلم في العصر الحاضر.

و(فقه العمران) هو من أنواع الفقه الغائب لعقود من الزمن، اندثرت كل محاولات التنظير والترشيد لفقه يحمل المسلم إلى عمارة الأرض وبنائها، وتأسيس نهضة مدنية لمجتمعاتها.

وللأسف إن الغفلة عن هذا الفقه ليس في بيانه والتعريف به فحسب؛ بل تجاوز إلى إلغائه وإنكاره أحياناً من فقه شريعتنا الغرّاء، واعتباره من مشاغل الدنيا الفانية على حساب الآخرة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الباقية؟! وهذا ما جعل الهوّة كبيرة بين تاريخٍ مضى برزت فيه أنواع العلوم والمعارف المختلفة، وازدهرت فيه مناحي العمران والبناء، وبين تاريخٍ تفنن في تحقير الدنيا نظرياً، واقتات على فتات الأمم الأخرى واقعاً عملياً. ومن أجل إثارة الذهن المسلم في إعادة نصاب هذا الفقه من العمل والبيان في أفعال المكلفين. فسأبين أهم ملامح هذا الفقه، وأهميته في الشريعة الإسلامية في المقال القادم بإذن الله.

---

(1) الجابري , فكر ابن خلدون . العصبية والدولة ص 130

(2) ابن خلدون , المقدمة 33/1

(3) المرجع السابق 70/1

(4) المرجع السابق 32/1

المدخل إلى فقه العمران (2/ 4)

د. مسفر القحطاني 1429/5/15

2008/05/20

تحدثت في المقال الماضي عن علم العمران كما اكتشفه ابن خلدون، وأن هذا العلم يتعدّى فهم طبائع العمران البشري إلى تحويل هذه المفاهيم إلى آليات عمل ومشاريع بناء من خلال فقهٍ سديد يوضح معالم الفعل التكليفي لعمارة الأرض، ومن أجل إثارة الذهن المسلم في إعادة نصاب هذا الفقه للوعي والواقع العملي، فسأبين أهم ملامح هذا الفقه وأهميته في الشريعة الإسلامية من خلال النقاط التالية:

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

أولاً: إن الله تعالى خلق الإنسان في الحياة الدنيا لغايتين:

عبادته سبحانه كما شرع، و عمارة أرضه كما أمر، وكان الخطاب القرآني يرتكز على مفاهيم وأشكال العبادة أكثر من تركيزه على آليات العمارة، وذلك أن العبادة تلبّستها صور عديدة من الشرك والانحراف أدّت إلى فساد الحرث والنسل، ولأن في صحتها وقوامها المطلوب قوام للحياة ومعاش الناس، ثم إن عمارة الأرض تتوافق مع ما جبل الله تعالى الإنسان عليه من حب التملك والتنافس والتكاثر، فهو يحتاج إلى الاعتدال في طلبه، والامتثال في عمله، ولا يصلح حاله إلاّ بشرعٍ مسدّد، ووحي ملزم يهذّب طبعه من الانحراف والتجاوز. ولا يعني ذلك أن القرآن قد أهمل الطلب أو نفاه؛ بل قد جاء في أكثر من آية تعزيز القيام بالعمارة، كقولة تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)[البقرة: 30].

وقد قال البيضاوي في تفسيرها: "والخليفة من يخلف غيره وينوب منابه، والهاء فيه للمبالغة، والمراد به آدم عليه الصلاة والسلام؛ لأنه كان خليفة الله في أرضه، وكذلك كل نبي استخلفه الله في عمارة الأرض، وسياسة الناس، وتكميل نفوسهم، وتنفيذ أمره فيهم" .[1] وقال ابن عاشور مؤكداً معنى العمارة: "فالخليفة آدم وخَلَفِيَّتُه قيامُه بتنفيذ مراد الله تعالى من تعمير الأرض بالإلهام أو بالوحي وتلقينُ ذريته مراد الله تعالى من هذا العالم الأرضي" [2].

وقال تعالى: (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) [هود:61]

قال الطبري مؤكداً معنى العمارة في الآية: "(واستعمركم فيها)، يقول: وجعلكم عُمَّارًا فيها" [3] وقال البيضاوي: "(واستعمركم فِيهَا) عمركم فيها واستبقاكم من العمر، أو أقدركم على عمارتها وأمركم بها" [4]، فالإنشاء من الأرض هو في خلق آدم من الأرض؛ لأنّ إنشاءه إنشاء لنسله، وإنّما ذكر تعلّق خلقهم بالأرض لأنّهم كانوا أهل غرس وزرع، كما قال تعالى: (أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ) [الشعراء: 146- 148]. ولأنّهم كانوا ينحتون من جبال الأرض بيوتاً ويبنون في الأرض قصوراً، كما قال في الآية الأخرى: (وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً) [الأعراف: 74]، فكانت لهم منافع من الأرض تناسب نعمة إنشائهم من الأرض، فلأجل منافعهم في الأرض قيّدت نعمة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الخلق بأنّها من الأرض التي أُنشئوا منها، ولذلك عطف عليه (واستعمركم فيها).

والاستعمار عند كثير من المفسرين هو الإعمار، أي جعلكم عامرينها، فالسّين والتاء للمبالغة كالتي في استبقَى واستفاق. ومعنى الإعمار أنهم جَعلوا الأرض عامرة بالبناء والغرس والزرع؛ لأنّ ذلك يُعدّ تعميراً للأرض حتى سُمّي الحرث عِمارة؛ لأنّ المقصود منه عَمر الأرض. (5)

فمقصود هذه الآيات وغيرها واضح الدلالة في بيان مقصود العمارة من خلق الإنسان، وأنه واجب على مجموع الخليقة في القيام به، وقد نص على حكم الوجوب الإمام الجصاص في قوله:"(واستعمركم فيها) يعني أمركم من عمارتها بما تحتاجون إليه، وفيه الدلالة على وجوب عمارة الأرض للزراعة والغراس والأبنية" (6)، وليس خارجاً هذا التكليف عن مفاهيم الطلب كما زعم البعض.

ثانياً: إن من أعظم مقاصد التشريع الذي جاءت بالدلالة عليه جزئيات الشريعة وكلياتها؛ ما يفيد الطلب بالقيام بعمارة الأرض واستصلاحها بما يحقق النفع والقوة للإنسان، وقد حكى هذا المقصد العام من التشريع غير واحد من علماء الفقه والأصول، ومنهم الإمام ابن عاشور في قوله: "إنّ من أكبر مقاصد الشريعة الانتفاع بالثروة العامة بين أفراد الأمة على وجوه جامعة بين رعْي المنفعة العامة ورعي الوجدان الخاص، وذلك بمراعاة العدل مع الذي كدّ لجمع المال وكسبه، ومراعاةِ الإحسان للذي بطَّأ به جُهده، وهذا المقصد من أشرف المقاصد التشريعية" (7).

ويقول الشيخ علال الفاسي: "المقصد العام للشريعة الإسلامية هو عمارة الأرض، وحفظ نظام التعايش فيها، وصلاحها بصلاح المستخلفين فيها، وقيامهم بما كلفوا به من عدل واستقامة ومن صلاح في العقل وفي العمل وإصلاح في الأرض واستنباط لخيراتها، وتدبير لمنافع الجميع" (8)

فعمارة الأرض بالبناء و الصناعة والزّراعة والانتفاع بما في باطنها من معادن وخيرات مطلوب من النّاس عامّةً، ومن المسلمين خاصّةً، فهو من مقتضيات الاستخلاف العامّ للنّاس في الأرض. قال الإمام الغزالي: "فإن جلب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الخلق وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم". (9)

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ولذلك كان قصد عمر بن الخطّاب –رضي الله عنه– من ضرب الخراج وعدم تقسيمه على الغزاة؛ أن تبقى الأرض عامرةً بالزّراعة فأهلها أقدر من الغانمين على ذلك لتوفّر الخبرة والقدرة على الزّراعة، ولذلك قال في أهلها: يكونون عمّار الأرض؛ فهم أعلم بها وأقوى عليها.

وقد سلك عمر –رضي الله عنه– في ذلك مسلك النّبيّ –صلى الله عليه وسلم– حينما فُتحت خيبر، وصارت الأرض والأموال المغنومة تحت يده، ولم يكن له من العمّال ما يكفون عمارة الأرض وزراعتها، دفعها إلى أهلها على أن يزرعوها ولهم نصف ثمرتها، وبقيت على ذلك طيلة حياة النّبيّ –صلى الله عليه وسلم– وحياة أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه.

فالعمران المدني في حياة الناس ليس هامشياً أو بعيداً عن مراد الشرع؛ بل جاء في أعظم مقاصد الدين، ولا ينبغي للمكلف أن يكون مقصوده مخالفاً لمقصد الشارع، وهذا يقتضي أن العمل والبناء والزراعة و الصناعة وصنوف التعمير هي من مقاصد الشرع الحنيف المطلوبة من عموم المسلمين. وللمقال بقية في العدد القادم بإذن الله.

---

(1) تفسير البيضاوي 64/1.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير 208/1، ولابن القيم في كتابه "مفتاح دار السعادة" 151/1 كلام مفيد وتفصيل رشيد حول خلافة الله في أرضه.

(3) تفسير الطبري: 368/15.

(4) تفسير البيضاوي: 103/3.

(5) انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير 163/7. والمعنى اللغوي في العمارة أو الاستعمار يُراد به عمارة الأرض بالزرع والحرث والبناء وهو قول كثير من أئمة اللغة، ومنهم ابن فارس حيث يقول: "من الباب عِمارة الأرض، يقال عَمَرَ الناسُ الأرضَ عِمارةً، وهم يَعْمُرُونها، وهي عامرة معمورةٌ. وقولهم: عامرة، محمولٌ على عَمَرتِ الأرضُ، والمعمورة من عُمِرت. والاسم والمصدر العُمْران: واستَعمر الله تعالى الناسَ في الأرض ليعمرُوها. والباب كلُّه يؤول إلى هذا." معجم مقاييس اللغة: 114/4.

(6) الجصاص: أحكام القران 378/3.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

(7) ابن عاشور: التحرير والتنوير2/449.

(8) علال الفاسي: مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها ص 41 و42 .

(9) الغزالي: المستصفى 1/483.

This file was downloaded from QuranicThought.com